غيبوبة

جفت دموعها. لم يبقَ إلا تلك الزفرات التي تتصاعد من روحها إلى السماء، رفعت عينيها لعلَّها تجد الخلاص أو بارقة أمل، ولكنّ شريط ذكرياتها مر أمامها مرسومًا بألوان الطيف يناجي مشاعرها، ويستفز دموعها للسقوط من عينيها، لتتذكر أنها لم يعد لها في عالمها هذا ملجأ ولا ملاذ؛ فقط أفكار، وآلام، وذكريات، يدور صراع بينهم، وهي ثابتة في مكانها تتأمل وتتابع كمن يشاهد فيلمًا بالأبيض والأسود قديمًا، للمرة العشرين، ومع ذلك يتفاعل مع الأحداث، يندمج، يتأثر، يضحك ويبكي، تنساب إلى أذنيها أصوات تلك الموسيقى، رائحة ذاك الحضن الدافئ؛ الذي طالما شعرت داخله بالأمان، أو أنفاس لاهثة في معركة الحياة، حتى رائحة الموت وما يصاحبها من ظلام، صدى أنفاس مختنقة كأنها في نفق مظلم موحش جعل البرودة تسري في جسدها، واقشعرَّ بدنها، لتنهار نبضات القلب تجاوبًا من هذا الإحساس بالانهيار، مع صفيرٍ متقطِّعٍ ينذر برغبة القلب في التوقف عن النبض للحياة، يقاوم العقل ويرفض

الاستسلام؛ ليسمع القلب صوت العصافير وحفيف الشجر. ها هي أرجوحة تهتز، وضحكات طفل صغير تملأ الأرجاء.

أراني وأنا أحلِّق في المكان. أيكون حلمًا؟ لكن لماذا تراني لا أستطيع أن أستفيق؟!

لِمَ يبدو لي وكأن كل شيء بعيد؟ لماذا تبدو فتاتي الصغيرة حزينة وصوتها يرتعش كأنها تبكي، وهي تبادلني الحديث؟ لماذا يتحدثون ولا يشاركني أحد؟ كيف لا أستطيع تحديد مكاني أو رؤية الوجوه؟

ليست لديَّ الرغبة في أن أغمض عينيَّ، أريد أن أدير ظهري أو أن أستدير.

طبطبة على كتفي قطعت هذا الحلم العميق، واستنشقت الهواء كأني لم أكن على قيد الحياة، أفقت على وجه شابةٍ عشرينيةٍ، وهي تبلِّلُ شفاهي لتتهلل أساريرها، وتبتسم في سعادة كأنها فازت بجائزة أو أسعدها خبر جعلها تقفز في مكانها وتطلق جرسًا تبلغ بعده أني أستفيق، لا أشعرُ بجسدي كأن شللًا أصابني، وأحسُّ آلامًا مبرحة كأني توًّا عدت من معركة! ما هذه الوجوه كلها؟ أين أنا؟

طمأنني شاب وهو يمسك يدي ويتحسس نبضي بوجهٍ باشٍ:

"حمدًا لله على السلامة، توقفت قلوبنا معك كلما توقف نبضك، أنت بطلة. مبارك فقد مُنِحْتِ بدايةً جديدةً لا تُتاح للكثيرين".

آخر ما تذكرته أنني كنت في غفوتي المعتادة في طريق عودتي من العمل، ومن حولي أصوات متداخلة كثيرة، علمت بعدها أنني الناجية الوحيدة من حادث ارتطام أتوبيس شركتنا بإحدى التريلات على طريق العودة، لأن سائق الأخيرة كان يقود مخمورًا.

لعلني أستحق فرصة ثانية، لذلك عليَّ أن أظلّ أتنفس ما كتب لي من حياة.

obeikandl.com